

فيا ردي العقل إن الفتي ... لم يدفع المقدور حتى ردي
 ظل صداه في الثرى ساكناً ... ولم يصادف نهلاً إذ صدي
 رنت له الأعداء إن عاينت ... صاحبها عن كل خير عدي
 كان الهدى يهدي إلى قلبه ... من سمعه لو أنه يهدي
 جادت له اسمية برهة ... وعاد يبساً غصنه ما ندي
 لا يطلب الثأر لميت ولا ... بودي لعمر الله فين ودي
 فجزت والحمد لله وحده.

هل تسترد اللغة مجدها القديم

يستطيع التاريخ الأدبي أن يبين حدود النشأة الحقيقية لكثير من اللغات الميتة والحية
 ولكنه لا يستطيع أو على الأقل لم يستطع إلى الآن أن يبين شيئاً من ذلك بالقياس إلى
 اللغة العربية التي ينطق بها من أهل الشرق الخلق الكثير .
 ولا شك في أني قد خصصت جزءاً من هذه المحاضرة للإشارة الموجزة إلى تكلم
 الظلمات الكثيفة التي حجبت لغتنا الشريفة عما يشرف به التاريخ على الأشياء من
 بصرية ثابتة ونظر بعيد ولكنني لم أستطع أن أخصص جزءاً منها لإيراد الأعاجيب
 والمضحكات التي يوردها أكثر الخطباء في خطبهم لأنني لا أطمع فيما يطمعون فيه من
 التصفيق الحاد والإعجاب الشديد فإليكم أتقدم بالمعذرة ومنكم ألتمس المغفرة وأظنكم
 لم تجتمعوا في هذا النادي لتضحكوا أو تصفقوا فإني لم أر بئداً أهمل أحوج إلى قللة
 الضحك وكثرة البكاء من هذا البلد . . . ولولا ثقتي بأنكم تعنون من الأمر ما أعلم
 وتشعرون بالواجب كما أشعر لقلت لكم مقالة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في
 بعض خطبه لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً.

أجل إنا قد أسرفنا في الهزل والجون وقصرنا في الجد والعمل وكان حقاً علينا لو أنصفنا أنفسنا أن نقتصد من الهزل ما تنفق في الجد ومن الفراغ ما نسعين به على العمل قبل أن يعضل الداء ويمتنع الدواء ونقضي ضحايا التقصير والنهو الكثير وهنالك لا يتفعلنا الندم ولا يعذرنا التاريخ.

قدم عهد اللغة العربية

نشأت لتحكم أيها السادة والإنسان طريف عهد بالوجود لم ينبغ أشده ولم يستكمل قوته بل كان طفلاً ناشئاً حديث السن حتى الفكر صغير العقل ولست أقول هذا القول يديجاً للفظ أو مبالغاً فيه وإنما هي الحقيقة الثابتة التي ليس فيها مجال لشك ولا جدال فإن هذه اللغة هي أول غصن نبت من لغة سام بن نوح عليها السلام وقد قطعت مع الإنسان هذا القدر من الزمان وعمرت معه منذ كان طفلاً إلى أن صار كهلاً وما أنتم أولاء تسعونها مني فتشعرون بأنها لا تزال حية قوية تثبت بأجنى بيان أنها أطول اللغات عمراً وأشدها أسراً وأعظمها قوة على الخطوب وعبراً على الأحداث. فكم ماتت اللغات وهي حية وفيت النهجات وهي باقية وكم حاربها الدهر فحربته وغالبها فغلبته ورامها بالسوء فامتعت عليه.

وقد أدركت هذه اللغة نضرة اللغات وذبولها وإشراقها وأفولها وشهدت مصارع أخوتها الساميات ومن يخافين سراعاً ويتهاونين تبعاً حتى عنهن الموت وشمهن الفناء هنالك عاشت فلة فريدة تمثل قول شاعر أبنائها الخيدين

ذهب الذين أحبهم ... وبقيت مثل السيوف فردا

أجل وقد أدركت هذه اللغة هوي الأمم الهاوية ورقي الشعوب الراقية فشهدت عظمة بابل وآشور ومصر وأشرفت على فحشة إسرائيل ورأت مجد اليونان والرومان والفرس

أقسام الإنسان كالباحث الماهر والطبيب العارف من غير حنان ولا شفقة على هذا النوع الإنساني وبدون أن يبين في وصف الأدوية التي ينبغي اتخاذها واستعمالها للاتقاء وتسوية تلك المواجه.

وهناك علاقة وتشابه آخر بين أبي العلاء وشبهناور وهو كونهما لم يتزوجا وعاشا في عزوبة مستمرة وعزلة وانقطاع مما أثر في طبيعتهما وجعلتهما يتشاءمان وينتقدان الهيئة الاجتماعية ويتناولان أهل الدين وأرباب العشائر والنساء والاعتقاد ويسئان الظن بالدنيا وساكنيها.

والفرق بين العالمين هو كون شبهناور استقل في علم الفلسفة ودراستها والتدوين فيها بخلاف المعري الذي لم يشغل بالفلسفة من حيث هي علم وإنما كان يبحث عن أسباب الأشياء وتعليل وجودها فتخطر له خطرات حكمية تسحوذ على مخيلته وذهنه الحاد فبكها قريحته الشعرية في تلك القوالب لعجبية التي تظهر من قصائده.

بقي أن نتكلم عن رسالة منقى السبل التي نقدمها اليوم إلى محبي الآثار العربية والمولعين بنشر شاعر الفلاسفة وفينسوف الشعراء ونظمه.

يظهر من هيئة هاتمة الرسالة وإنشاءها أن المعري ألفها في الدور الأخير من حياته زمن عزله وانقطاعه (حوالي سنة ٤٣٠ هـ) وقد زهد في الدنيا لكبره واقترب أجنه. فكأنه أراد الرجوع للنبيات الدينية وسلك طريقة الوعظ والنسك وتمسك بالاعتقاد. وأين قوله زمن صغره لما كان في غزارة قواه وعنفوان شبابه:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تخطئنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

والحقيقة أن هذا المذهب لا يصح إلا إذا قلنا أن العرب ليسوا من بني آدم أي البشر وإنما هم أبناء رجل آخر نشأ في جزيرة العرب من غير أم ولا أب ونشأت منه زوجة واستقر نسلهما في الجزيرة لا يختلط الناس حتى تكونت لغته وضمنت لنفسها عدم التأثر بالأجنبي والدخيل.

أما والعرب من أبناء سام بن نوح وبعبارة أوضح من أبناء آدم فليس لهذا المذهب من الصحة نصيب قليل ولا كثير.

إنما تنشأ اللغة هذه النشأة إذا اقتطعت من الطبيعة مباشرة من غير أن يكون لها مثال تحذيه أو منوال تسج عليه فأما اللغة التي لها أصل ثابت معروف كاللغة العربية فليس من المعقول أن يطرد فيها هذا المذهب وعنى هذا نستطيع أن نقول أن هذا المذهب يصح بالقياس إلى لغة واحدة وهي لغة الإنسان الأول التي اقتطعها من أصوات طبيعة وكما أن أسرة الإنسان الأول قد تفرعت إلى أسر مختلفة ثم كانت منها أمم وشعوب فإن لغتها الأولى قد تفرعت إلى لهجات متباعدة ثم كانت لغات متباينة وعنى هذه القاعدة استطاع الفرنج أن يترجموا كثيراً من اللغات الدارسة.

أما الأسباب الحقيقية التي نشأت عنها صعوبة البحث التاريخي عن اللغة العربية حتى عمت علينا أسرارها وأسدت دوننا أسرارها فوقف الحائرين الداهنين بغزاء كثير من ألفاظها لا نعرف لها أصلاً ولا نسيز لها اشتقاقاً فهي كثيرة أكتفي بالإشارة إلى ثلاثة منها الآن.

الأول أن معرفة النشأة الحقيقية للغة رهينة بمعرفة أصلها الذي اقتطعت منه فما كنا لنعرف نشأة اللغة الفرنسية لو لم نعرف اللغة اللاتينية.

كذلك لا نستطيع معرفة نشأة اللغة العربية حتى نعرف اللغة السامية الأولى التي هي أصلها ولكنها مع الأسف قد بادت واندجعت في بنائها قبل التاريخ فلم يبق لنا إليها من سبيل.

الثاني أن ضياع الأصل لا يقطع الرجاء في الوصول إلى بعض حقائق اللغة في نشأتها إذ استطعنا أن نستعين على البحث بالمقابلة بينها وبين أخواتها من اللغات الأخرى ولكننا مع

الأسف لم نفعل شيئاً من ذلك ولم يفكر فيه فقد كان ثمة اللغة رحيم الله في عصر يمكنهم من ذلك لأن كثيراً من اللغات السامية كانت لا تزال حية على عهدهم ولكنهم قد عكفوا على جمع اللغة وتدوينها من غير أن يفكروا في البحث عن أصلها وقد أخذت تلك البقية الباقية تندمج في اللغة العربية بحكم القهر والتغلب الفطري حتى لم يبق لها من الأثر إلا قليل.

ومن الغريب أيها السادة أن علماءنا رحيم الله بدل أن يبحثوا عن اللغة السريانية من حيث علاقتها باللغة العربية بحثوا عنها من حيث أنها ستكون لغة الأروام وسيكون وأظنكم تضحكون إذا سمعتم قول بعض العلماء

(ومن غريب ما تري العينان ... أن سؤال القبر بالسريان)

(أفتي بهذا شيخنا البقيني ... ولم أره لغيره بعيني)

هذان بيتان يمثلان ضعف السليقة العربية وفسادها قبل كل شيء أقبح تمثيل ويمثلان سقوط المهمة وانحطاط النفس لأنها قد تركت النافع وبحتت عد ما لا خير فيه.

وأي ضعف للسليقة العربية أكثر من جعل الأقوال التي تسع بالاذن مرئية للعيون وأي انحطاط للنفس أكثر من أن تترك الحياة وتبحث عن الموت.

ولو أني وكنت بإصلاح هذين البيتين لقنت :

(ومن سخي فماتني الأذن ... إن سوء آل القبر بالسرياني)

(أفتي بهذا شيخنا البقيني ... وهو حديث كذب ومين)

عنى أن المستشرقين من علماء الفرنج قد بحثوا هذا البحث الذي تركناه وسلكوا تنكم الطريقة التي أغفناها فاهتدوا إلى حقائق في تاريخ اللغة العربية لا بأس بها وليس هذا موضع تفصيلها الآن فليس علينا إلا أن نتأثرهم في هذه الطريق فإقم ليسوا أحق منا بالبحث عن لغتنا والتقيب عليها.

السبب الثالث أن العرب ولا سيما أهل الحجاز الذين نبحث عن لغتهم الآن قد كانوا أمة بادية لم تشترك مع غيرها من الأمم في تكوين الحضارة الإنسانية اشتركا حقيقياً إلا بعد ظهور الإسلام فكانت في جاهليتها محتجة عن التاريخ ولذلك لم يحفظ عنها إلا أساطير حظ الظن منها أكبر من حظ اليقين.

اللغة العربية في الجاهلية

نشأت هذه اللغة وتكونت ألفاظها وأساليبها وهي معزول عن الناس قد جعلت البدواة بينها وبين التاريخ حجاباً مستوراً وكأنها قد سكت الحفنة والاحتجاب ورغبت في الظهور ومجاعة اللغات الحية وظهرت لتاريخ في القرن الخامس لميلاد المسيح ومتصف القرن الثاني قبل الهجرة فإذا لغة ضخمة الألفاظ فخمة المعاني متينة الأساليب رصينة التراكيب قد تم خنقها وكسفت قواها فأصبحت قادرة على البقاء مستعدة للنشأ وقد سكت في الآداب الوجدانية كل مسلك فندحت الخير والفضيلة وذمت الشر والرذيلة وأخذت بنصيب موفور من المدح والهجاء والوصف والثناء والتشبيب بالنساء والفخر بشرف المناسبات وكرم المناقب واشتغلت عنى الجم الكثير من الحكم البالغة

والأمثال السائرة ومن الخطب الرائعة والأسجاع البارة ولم تدع فناً من فنون الأدب
الوجداني إلا ضربت فيه بسهم وفازت منه بنصيب.

إذ صح ما يقولون من أن مقاييس الرقي الأدبي لكل أمة من الأمم هي أشعارها وأمثالها
وأغانيها لأن الأشعار مرآة النفس والأمثال صور الفكر والأغاني لغة القلوب.

أقول إذا صحت هذه القاعدة وقمنا رقي العرب في جاهليتهم بهذه المقاييس الثلاثة
كانت النتيجة مؤلمة جداً لأننا لا نستطيع أن نتردد لحظة واحدة في الحكم بأن العرب
الجاهليين الذين لم يؤدبهم أستاذ ولم يتقهم كتاب ولم يصنع أخلاقهم دين أرقى منا
أنفساً وأذكى قلوباً وأبعد منا همماً وأصدق عزماً والدليل على ذلك سهل ميسور تعالوا
نقارن بين أشعارنا وأشعارهم وأمثالنا وأمثالهم وغنائنا وغنائهم ثم نستخلص من هذه
المقارنة نتيجة الحكم فأبي الفريقين كانت له النتيجة فهو صاحب الغلب والفوز.

غير أني أيها السادة أستحي أن أقارن بين قول امرئ القيس في التوصل على حبيبته

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال

فقلت حياك الله إنك فاضحي ... ألت ترى السمار والناس أحوالي

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصائي

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها ... عليه القثام سيء الظن والبال

يفط غطيظ أبكر شد خناقه ... ليقتلني والمرء ليس بقتال

أبقتلني والمشر في مضاجعي ... ومسنونة زرق كآنياب أغوال

أستحي أن أقارن هذا الشعر الفخم الذي يمثل القوة والعزم ويظهر قائده مظهر المتسلط
القاهر وبين ذلكم الغناء المصري القائل - يالموني يالموني يالني في حبك ظنوني -

ياملوني وأنا أحب الخصر ياملوني ولا آكل الخصر ياملوني وحيي في مصر ياملوني غنى من
مجيولي . . .

قفوا أنفسكم أيها السادة موقف الحاكم الفاصل بين الحق والباطل وحدثوني أي معنى
لنداء النيسون في هذا الغناء وهو الذي ظنم هذا العاشق في حبه وما هي العلاقة بين
أكل الخصر وبين الحب ومن ذا الذي يستطيع أن يكون قواداً لهذا العاشق بعد أن فقد
به العجز وضعف الهمة عن أن يصل إلى حب حبه إليه وأكرم كريم عنه.

لندع ذلك الشعر والغناء ولننتقل إلى شعر وغناء آخرين.

هل تستطيعون أن تقارنوا بين قولكم ذلكم الشعر الجاهلي في عتاب حبيته :

فإني لو تحتفني شمالي ... خلافت ما وصنت بما عيني

إذا لقطعتها ولقنت بيني ... كذلك أجتوي من يجتويني

وبين هذا الغناء المصري القتال :

ارحم ميم له أحوال لما رآك قدي خلافة صعبان عنه . . .

حدثوني أيها السادة عن مقدار الفرق الكبير بين ذلكم الشاعر الجاهلي الذي يخاطب
حبيته بهذه النهجة القاسية وهذا الشاعر المصري الذي عرف أن حبه قد هجره
واستبدل به غيره فلم يستطع أن يعاتبه بأكثر من قوله أن هذا صعب عنه بل إنه لم
يستطع أن يقول هذه الكنية إلا بعد أن قدم بين يديها مقدمة طويلة في الشكوى
والاستعطاف.

ستقولون أن هذا الفرق بين الشاعرين أثر من آثار الفرق بين البداوة والحضارة فذلك
شاعر هيات له بداوته أن يخاطب حبيته بذلك الجفاء وتلك الغلظة وهذا شاعر هيات
له الحضارة أن يعاتب حبيته بهذا الرقيق واللين.

كلا أيها السادة ليس تأثير الحضارة والبدادة في هذا الأمر كبيراً فإن الحضارة الصالحة لا تقتل عاطفة الغيرة من قلب الإنسان ولعنكم معتم خبر ذلكم الشاعر العباسي الناشئ في الحضارة إذا اشتدت به الغيرة عني حبيته حتى أخفق عليها من الهواء فقتلها وقال يرثيها:

يا طلعة الحمام عليها ... فجنى لها ثمر الردى بيديها

حكمت سيفي في مجال وشاحها ... ومدامعي تجري عني خديها

رويت من دمها الثرى ولطائلاً ... روى الهوى شفتي من شفيتها

فوحق نعليها ما وطئ الثرى ... شيء أعز علي من نعليها

كان قتيها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذباب عليها

لكن ضنت عني العيون بحسنها ... وأنفت من نظر الحسود إليها

نعم إني لا أريد أن يكون الناس غلاة في الغيرة كهذا الشاعر ولكني أريد أن أبين لكم أن هذا الفرق بين الشاعرين ليس من آثار البدادة والحضارة وإنما هو من آثار الفرق بين العزة والذلة فنكم شاعر أبي النفس حمي الأنف لا يقبل الضيم ولا يرضى العار وهذا عاشق ضعيف مستكين قد رضي بالدون وقنع بالقليل واطمأن إلى الهوان.

ستقولون مالم تقارن بين الجيد من الشعر العربي والرديء من الكلام البندي وترك الشعر والنوابع الأفاضل والشعراء المفضين أمثال شوقي وحافظ صبري.

والحقيقة أيها السادة أن هذا الاعتراض محرج جداً لأنه يتعجنني في الحكم على هؤلاء الشعراء وقد لا أستطيع أن أرضيكم بهذا الحكم ولكني أقول أن هؤلاء الشعراء ليسوا في الحقيقة شعراء مصر وإنما هم بين رجبين رجل فج منهج الفرنج فهو يعبر عن أخلاقهم وأخلاقهم وعلى مناهجهم وأساليبهم وهذا لا ينبغي أن يحب على مصر وإنما

يجب أن ينحى بأوروبا ورجل نهج مناهج العرب القدماء فهو يكرر ما قالوه ويردد ما نطقوا به مع قليل من التغيير في اللفظ فهو يشبه القطا والظليم وهذا لا ينبغي أن يكون من شعراء مصر وإنما ينبغي أن يكون من شعراء القبور.

لندع الشعر والغناء الآن فهذا مقدار يكفي للمقارنة بينها ولنتقل إلى الأمثال فهل تستطيعون أن تقاربوا بين ذلكم المثل العربي القائل كل فتاة بأبيها معجبة.

وهذا المثل المصري القائل الخنفسة عند أمها عطارة والقرود عند أمه غزال.

كفى كفى أيها السادة فقد أثبتت المقارنة بالدليل والبرهان إننا لم نصل من الرقي الأدبي إلى ما وصل إليه أولئك الأعراب وإن كنا أولى حضارة ومدنية وأصحاب علوم وآداب وذوي شريعة ودين.

آداب اللغة العربية وما دقها في الجاهلية

ارتقت آداب اللغة العربية في السادس ليلاد المسيح بمخالطة العرب لأهل العراق والشام فقد أخذوا عنهم يهودية موسى ونصرانية المسيح وربما انتقلت إليهم بعض الآراء الفلسفية التي أدخلها القسيسون في الديانة المسيحية كما في قول الأعشى :

استأثر الله بالبقاء والعد ... ل وولي الملامة الرجل

وكذلك أخذوا عنهم عقائد الصابئة وشيئا من مذاهب الجوس ونقلوا عن حضارة الروم والفرس كثيرا من الأدوات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل وتبع ذلك نقل كثير من الألفاظ الفارسية والرومية ولا سيما فيما يتعلق بالنبات والسلاح وأدوات النهو والطرب وأنواع الدواء والعقاقير وفي أثناء ذلك كان الجيش قد احتلوا بلاد اليمن فأدخلوا فيها كثيرا من لغتهم وكانت التجارة بين الهند واليمن فاستيعب ذلك انتقال كثير من الألفاظ السنسكريتية إلى لغتها ولا سيما فيما يتعلق بأنواع التجارة وأظن هذا

المقدار من الوصف قد مثل لكم اللغة العربية تشيلاً حسناً فأنتم ترونها الآن جميلة رشقة ولكن صدق المثل العربي القائل لا تعدم الحسنة ذمماً.

فإن تلك الجميلة الحسنة لم تخل من عيوب فقد كانت لغة قوم متوحشين يزعمون الأنفس ويهدرون الدماء ويعيشون من النهب والسلب ويستبيحون لأنفسهم بيع السر والعبث بأعراض العدو والتشيل بالمغلوب حتى أن أحدهم لينحصف نعله بإذن عدوه إن ظفر به أو قدر عليه.

وهم غنى ذلك أولو شظف بالعيش وخشونة في الحال يسكنون الجبال والرمال وربما أكنوا الخنافس والضباب وغذوا أنفهم بدماء الإبل وأوبارها فنشأ من ذلك في لغتهم حوشية الألفاظ وتنافرهما وجفوة المعاني وتعقيدها وقد كانوا فوق ذلك متافرين متدابرين قلنا تطعن قبيلة منهم إلى الأخرى فلم يكن من سبل بينهم إلى التعارف وبعبارة واضحة لم يكن من سبل إلى اتفاهم في المنطق فقد تباعدت اللغات واختلفت اللهجات لتعدد الأوضاع وتباعدت الأصقاع حتى أنهم كانوا لا يفهم بعضهم بعضاً.

وقد وفد أعرابي غنى منك من ملوك حمير فقال له الملك ثب يريد الجنوس فظن الأعرابي أنه يأمره بالقفز كما هي لغة الحجاز فوثب من أغلى الجبل حتى تردى في أسفله فلما سأل الملك عن ذلك واطنع طنع الرجل قال من دخل ظفار حمير . . . وقد أحس العرب من أنفسهم هذا الداء في أواخر القرن السادس لميلاد المسيح فأخذوا يطون له وبعبارة جنية أخذوا يتهيمون لهضتهم الجديدة في اللغة والدين والاجتماع فهاذا صنعوا. ؟.

مقدمات النهضة العربية

أقاموا بالقرب من مكة أسواق ثلاثاً كانوا يقضون فيها كل عام شهراً كاملاً من الأشهر الحرم وهو ذو القعدة ولم يكن لقبيلة أن تتخلف عن هذا الاجتماع فكانوا يبيعون ويشتررون ويتقاضون ويتخاصمون ويتنافرون ويتناشدون حسان القصائد ويتبادلون مئان الخطب وكان يجلس لهم قضاة يفصلون الخصومة فربما أعلن قوم الحرب على آخرين فردهم القضاة إلى السلم وربما ظفر الرجل بقاتل أخيه أو أبيه فألزمه القاضي أن يطنقه ويقبل منه الفداء وكان يجنس للشعراء خاصة قضاة ناقدون يفضون بعضاً على بعض ورئيس هذه الطائفة من القضاة هو نابغة بني ذبيان.

وقد نتج من هذه الأسواق الثلاثة نتائج كبرى: الأولى - شعور العرب بمحاجتهم إلى السلم واتفاق الكثرة واجتماع الرأي واتلاف القلوب ولعنكم ترون ذلك ظاهراً في معلقة بن أبي سنن حين يدعوا عبساً وفزارة إلى الصلح.

الثانية - قيو قلوبهم لقبول الوعظ والدين واستعداد نفوسهم للبحث النظري عما اشتمل عليه هذا العالم من نظام بديع ولعنكم تجدون ذلك جلياً في شعر زهير وخطب قس بن ساعدة وأكثم بن صفيي وفي شعر ليبد بن ربيعة الذي قاله في الجاهلية.

الثالثة - تقارب اللغات المتباعدة واتلاف اللهجات المختلفة وتغلب لغة قريش على اللغات الأخرى.

وإذا كانت الحوادث في هذا العالم إنما تحدث متوالية متتابعة وينتج بعضها من بعض كان حقاً علينا أن ندع هذه النتائج الآن حتى نصل عندها في الوجود لنجني ثمرها بعد حين.

الشعر

في ذلك العصر التهيت جذوة الشعر واستطار شرره فالتهم كل شيء واحتكم في كل إنسان ولم تكن حكمة الإله ولا رأي الأع + ولا اعتماد إلا عليه وكان يكفي للشاعر

أن يمدح الوضع فيرفعه أو يذم الرفيع فيضعه أو يغري بالحرب فتسهالك النفوس وتتفاني
القوى أو يدعوا إلى السلم فتصبح الضغائن والأحقاد نسباً منسياً.
اختلفت قبيلتان من قبائل العرب على إثر من الآبار حتى ذكت بينهما نار الحرب فلم
يكن إلا أن وقف شاعر أحدهما وقال:

كلا أخو بنا أن يرع يدع قومه ... ذوي جامل دثر وجيش عرمرم
فما الرشد في أن تشتروا بعمكم ... بئياً ولا أن تشربوا الماء بالدم
هنالك ردت النفوس إلى أعنادها والسهام إلى كنانها وأصبح القوم صديقاً متحابين
بعد أن كانوا عدواً متباغضين.

كان لعمر بن عدي كرب الزبيدي أخت يقال لها كبشة وكانت متزوجة في بني مازن
وكان لها أخ يقال له عبد الله فزار عبد الله أخته ذات يوم فبينما هو جالس مع بني
مازن يشارهم الخير وثبوا عليه فقتلوه ثم أفاقوا من سكرهم فاستشعروا الندم وذهبوا
إلى عمرو بالدية معتذرين فعفا عمرو وقال: إحدى يدي أصابني ولم ترد.
فلما بلغ الخبر كبشة صبرت إلى يوم عيد من أعيادهم ثم خرجت وقد شقت ثيابها
ولطختها بالدم وهي تقول:

أرسل عبد الله إذ حان يومه ... إلى قومه لا تعقنوا لهم دمي
ولا تقبوا منهم أنالاً وأبكراً ... وارتك في بيت بصعدة مظنم

ودع عنك عمرو إن عمر مسالم ... وهل بطن عمرو غير شير لمطعم

فلما سمع عمرو الأبيات ثارت في رأسه الحمية فغزا بني مازن وقتل منهم خلقاً كثيراً.
ولقد كان للشعر عند اليونان إله معروف هو أبولون وأما العرب فقد كان للشعر
عندهم شياطين لا تحصى وكان لكل شاعر منهم شيطان على الأقل وربما كان له أكثر

من ذلك ولم تذهب هذه الخرافة بظهور الإسلام بل بقيت بعده وأيدها عنناء المسلمين في القرن الرابع للهجرة وقد حدث صاحب الأغاني في كتابه أن بشر بن مروان كان يحب الإفساد بين الشعراء فلما ولي العراق أمر سراقه البارقي أن يهجو جريراً ويفضل عليه الفرزدق فقال أبياتاً منها:

إن الفرزدق برزت أحسابه ... عفواً وغودر في الغيار جرير

فأمر بشر أن تكتب هذه البيات إلى جرير وأن يؤخذ بالإجابة عليها فلما وصلت الأبيات إلى جرير خلا إلى نفسه سواد الليل فلم يصنع شيئاً فلما كاد يأخذه اليأس سمع قائلاً يقول في زاوية من زوايا البيت ويحن يا جرير غبت عنك ليلة فلم تصنع شيئاً هلا قنت :

يا بشر حقاً لوجهك البشر ... هلا انتصرت لنا وأنت أمير

فقال له جرير حبك حبك ثم أمم القصيدة والآن أظنكم قد عرفتم مقدار ما كان لشعر في جاهلية العرب من مكانة مبنية ومثولة عالية ومن استثار بالقلوب واقتدار غنى الألباب ولم تكن الخطابة بأقل منه وحكم أن تعلموا أن القبيلة كانت لا تشرف ولا ينبه ذكرها إلا إذا كان لها شاعر وخطيب. الباقي لآتي .

النهضة الفكرية في سورية

الإقبال على الآداب منظومها ومنشورها أول ما تنصرف إليه وجوه الأمم الآخذة بالنهوض ثم تنبعث الرغبة في الفنون والعلوم بحسب الحاجة والدواعي. وبعد أن أصبحت الآداب في سورية فلبت حداً غريباً من الابتدال في القرن الثاني عشر للهجرة وأنت أدبيات أهل الطبقة الراقية في ذلك العصر تافهة بشعة لا شأن لها ولا ذوق فيها عادت فأخذت تسير نحو الحياة في منتصف القرن الثالث عشر بما هب عليها